الإسلام فى أروقة المستشرقين

obeikandl.com

obeikandl.com

الإسلام فى أروقة المستشرقين

أودع الله فى الإنسان غريزة ، تدفعه إلى الاعتقاد فى قوة أعلى منه ، يخشى بطشها ، ويخاف عقابها ؛ فترتعد فرائصه إذا ظن أنها غير راضية عنه ، أو شعر بأن عقابها سيناله إن عاجلاً أو آجلاً ، ولهذا فهو يحاول جاهداً لاسترضائها ، واستمالة عطفها ، واستدرار رحمتها ، وذلك بأن يلتزم بكل ما يعتقد أنه أوامر صدرت منها ، سواء كان ذلك إيجاباً أو سلباً ، أى فعلاً أو اجتناباً ، فهو يصدع لأوامرها فينفذها ، ويلتزم بنواهيها فيتجنب كل ما حرمته عليه .

ذلك هو شأن الإنسان أينما كان ، وفى أى عصر وجد ، لم تخل حياته من هذه الظاهرة ، سواء كانت معيشته بدائية ، أو كان محفوفاً بأساليب التقدم والرقى ، ومنعماً على بساط الإنتاج الحضارى ، يعب من ثمراته فى كل لحظة يحياها ، ويرشف رحيقه مع كل نسمة يستنشقها ، إذ أن الغريزة الدينية جزء منه ، وقطعة من كيانه لا ينفك عنها ، ولا يتخلص منها مهما جنحت أفكاره فى تصور هذه القوة التى تسيطر عليه . فما يعرف عن بعض الناس بالميل إلى الإلحاد أو إنكار الله ، فليس إلا صورة من صور اختلاف تصور هذه القوة ، أو أسلوباً من أساليب التعبير عما يكمن فى داخل الإنسان من غريزة التدين .

فالتدين ظاهرة علمة يشترك فيها الناس قاطبة ، غير أنهم يختلفون فى تصور حقيقة الدين ، وفى مفهوم ما ينبغى أن يكون عليه المرء ليصبح متديناً ، ومن هنا جاء تعدد الأديان واختلافها ، غير أن المشاهد لهذا التعدد يرى أنه ينقسم إلى قسمين :

- قسم سماوى ، أى ما نزل من عند الله على رسله ، الذين اصطفاهم ليبلغوا وحيه إلى الناس .
- والآخر غير سماوى ، ويدخل فى ذلك دعوات المصلحين ، وادعاءات من أضفوا على أنفسهم ثوب القداسة الدينية ، لينالوا جاهاً بين الناس وقبولاً عندهم .

ومن الطبيعى أن ينشأ بينهم وبين أصحاب الدعوات الإلهية خصومة حادة ، لتنافر مبادئ كلا الفريقين فى الأهداف والغايات ، وتباعدها فى السلوك والاتجاهات ، وتباينها فى الأخلاق والعبادات .

كذلك من المعروف تاريخياً أن أصحاب الدعوات البشرية ساندت بعضها — فى معظم الأحيان — ضد الأنبياء ، واستعانت ببعضها لوقف تأثير الدعاة إلى الله فى المجتمع الإنسانى ، وكان هواهم وتأييدهم المعنوى — فى حالة العجز عن التأييد المادى — مع من يتفقون معهم فى طبيعة العقيدة ومصدرها ؛ فقد فرح مشركو مكة ، عندما انتصر الفرس الوثنيون على الروم ، أتباع عيسى بن مريم عليه السلام ، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يرون أنهم أقرب إلى الفرس منهم إلى الروم ، لتشابه عقيدتهم فى الصورة العامة ، وقرب الصلة بين ما يدعو إليه محمد ﷺ وبين عقيدة الروم .

كان من المفروض — قياساً على هذا — أن يميل أهل الروم إلى الإسلام فيعتنقوه ويناصروا نبيه ، ويقفوا صفاً واحداً فى جبهة واحدة ضد الوثنيين ، وأصحاب النحل البشرية ، لكن ذلك لم يحدث ، فهم قد ناصبوه العداء ، فجادلوا المسلمين وافتروا على الإسلام ، وتجنوا على رسوله ، فأشاعوا عنه ما لم يكن فيه ، وقالوا عن لسانه ما لم يقله ، وأولوا فى آيات القرآن الكريم بما لم يحمله اللفظ ، ولا تقبله أساليب اللغة .

فآباء الكنيسة اتخذوا الهجوم المباشر أسلوباً ، وتشويه الحقائق منهجاً ، فجاءت كتاباتهم عن الإسلام مخالفة للواقع ، طافحة بمظاهر التعصب والتحامل ، مما جعل الإسلام يبدو للأوربيين — حين كانت الكنيسة هى المصدر الوحيد للمعرفة — مخيفاً ، والمسلمين وحوشاً .

قادت الكنيسة حملة شعواء ضد النبى ﷺ ، فظلت تلقن أتباعها الافتراءات والاتهامات ضده ، حتى صار هذا الجانب جزءاً لا ينفصل عن الثقافة الأوربية ، لا يستطيع أحد التخلص منه بسهولة ، يقول جوتشالك :

" إن التقاليد الأوربية الضاربة بجذورها فى أعماق التاريخ تجعل من الصعب علينا أن نلتزم الحياد فى بحث سيرة محمد (ﷺ) ، فتأثير المسيحية متغلغل فى كل جوانب مجتمعنا ،

لدرجة لا تمكننا من الفصل بين حياته وبين رسالته الدينية ، لأن هجوم بعض النقاد على القرآن — الذى هو دستور الحياة للمسلمين — أقل بكثير من الهجوم على سيرة محمد ، ومقصدهم من ذلك إفهام الأوربيين أن من تكون حياته على هذا النحو لا يمكن أن يكون جاداً فى دعوته للناس إلى دين صحيح .

" ساد هذا الرأى — ولا زال — بين كثيرين ، بل وصل الأمر إلى أكثر من هذا ، فقد وصفوه صراحة — دون تورية ولا تكنية — بأنه محتال ، وسفاح ، وشهواني .[2] فالحقد السياسى — الذى نتج عن انتشار الإسلام وسيطرته على كثير من مناطق العالم — والتعصب الدينى دفعا هؤلاء الكتاب إلى البحث عن الجوانب المظلمة ، لاستخدامها فى موقف الدين الإسلامى ، فوجدوا نقطة بداية هذا الخط فى حياة النبى ﷺ ، فاستخدموها — كدليل على أن الإسلام لا يصلح لشيء منه — للتنفير منه . "[3]

أما المستشرقون (وهم القائمون على كراسى الدراسات الاستشراقية فى الجامعات التى كان الهدف من إنشائها (أى الكراسى) خدمة المستعمرين ، لأنهم كانوا — وما زالوا — مستشارين لحكوماتهم فى شئون الدول الإسلامية) فقد ادعوا أنهم ينتهجون المنهج العلمى الحديث فى الدراسات الإسلامية ، لكن بحوثهم دارت فى دهاليز التعصب ضد الإسلام ، لأن اللاوعى عندهم مليء بما غرسته الكنيسة فى عقول أسلافهم . ومن الإنصاف القول بأن

---

[2]) نشرت جريدة المصرى اليوم أحدث هجوم على محمد ﷺ ، فقد أثار أحد أساتذة العلوم الإسلامية ويدعى سفين محمد كاليش موجة من الاستياء بين أوساط المسلمين الألمان ، بسبب تصريحاته ، وكتاباته عن الإسلام والتى تشكك فى وجود النبى محمد ﷺ تاريخيا ، وثبوت القرآن الكريم .

وزعم كاليش الذى يدير مركز الدراسات الدينية التابع لجامعة مونستر شمال ألمانيا ، أنه لا يتوافر دليل تاريخى يثبت وجود النبى محمد ، فى حين أنه حظى بمساندة "جزئية" من قبل أستاذة ألمانية أخرى تدعى جوردون كريمر ، التى تقوم بتدريس العلوم الإسلامية فى جامعة برلين الحرة ، حيث قالت لإذاعة ألمانيا الثقافية : إنه ليس هناك دليل تاريخى على وجود النبى زاعمة أن كاليش لديه كل الحق عندما يقول إنه ليس هناك دليل واضح يمكنه أن يعطينا برهاناً "إيجابياً" على وجود النبى محمد "

هذا كلام أتفه من أن يعلق عليه أحد ، وينطبق عليه قول الشاعر :

ما ضر شمس الضحى أن لا يرى * ضوءها من ليس له بصر

[3]) الإسلام فى الفكر الأوربى : محمد شامة

الطابع العام أقل حدة مما كتبه آباء الكنيسة ، وبأنه ظهر بينهم أفراد التزموا الحياد فى بعض جوانب بحوثهم ، لأنه لا يوجد عالم يستطيع أن يتخلص كلية من آثار مجتمعه الثقافى .

وسوف نعرض بعض ما قاله المتحاملون منهم على الإسلام ، لنبين مدى ما يسعون إليه من التشكيك فى صحة الإسلام ، كرسالة أوحى الله بها على رسوله محمد ﷺ :

1. أراد المستشرقون التشكيك فى السيرة النبوية ، فاستعانوا على ذلك بالحديث عن حادثة شق الصدر ، مؤكدين أنها أسطورة ، وعللوا ظهورها فى المجتمع الإسلامى بأن المسلمين حين أرادوا شرح قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ ﴾ [الشرح: ١ - ٤] اختلقوا هذه الحادثة لبيان معنى هذه الآيات الأربعة ، وهى لم تحدث على الإطلاق ، فهى من نسج خيال المسلمين .

وجمهور المسلمين لا يوافقونهم على أنها أسطورة ، لأن كثيراً من كتب السيرة كلها ذكرتها ، فمن المستبعد أن يجمع كل هؤلاء على إلباس الأسطورة لباس الحقيقة ، وهم الذين كانوا يدققون ويحققون فيما يرددون من أخبار.

وإنكار بعض علماء المسلمين فى العصر الحديث لهذه الحادثة – إستناداً إلى أن ما ورد فى كتب التاريخ أسطورة — لا يعد مطعناً يدخل منه أعداء الإسلام للهجوم عليه منها ، لأنها — أى حادثة شق الصدر — لا تتعلق بعقيدة ، وليس لها صلة مباشرة بتعاليم الإسلام المفروضة .

أما إدعاؤهم بأن الدافع إلى ظهورها ، هو وجود الآيات الأربع الأولى من سورة الشرح ، فلا يقوم عليه دليل مستوفى الأركان ، ذلك أن الباحث ينبغى ألا يعتمد فى بحثه إلا على ما يذكر فى الكتب المعتمدة ، لا على ما كتبه غير المتخصصين ، وما أكثرهم فى مجال الأديان ، فلم يربط المفسرون المتخصصون بين قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ وبين حادثة شق الصدر ، بل أجمعوا فى تفسيرهم لهذه الآيات على أن الله مَنَّ على محمد ﷺ :

- بأن أزال الحقد من نفسه ، وأودع فيها هدى ، ومعرفة ، وإيماناً ، وفضائل ، وعلوم ، وحِكَم .
- وبأنه خفف عنه ما أثقل ظهره من أعباء النبوة والرسالة ، حتى يقوم بها ، ويبلغ رسالة ربه .

وهى نِعَم تدل على أن الرعاية الإلهية ستصاحبه .

ولا نجد ربطاً بين هذه الآيات وبين الحادثة إلا فى كتب لاوزن لها ، ولا يعتمد عليها فى بحث علمى له قيمة . وعليه فأى نتيجة تترتب على الأخذ من مثل هذه الكتب لا قيمة لها فى نظر الباحث المدقق .

2 . ادعوا أن والد السيدة خديجة رضى الله عنها لم يكن موافقاً على زواجها من محمد ﷺ ، فاحتالت عليه لتنزع الموافقة منه ، وكانت حيلتها أن سقته خمراً حتى أسكرته ، ثم انتزعت منه الموافقة فى حال سكره .

وأمانة البحث العلمى تحتم عليهم ألا يقتصروا على رواية واحدة فيما ورد فيه عدة روايات ، فقد جاء فى كتب السيرة :

أن خويلداً (والد السيدة خديجة) أبرم هذا الزواج وهو سكران ، فلما أفاق أنكر ذلك ، ثم رضيه وأمضاه ، وفى ذلك يقول راجز من أهل مكة :

لا تزهدى خديج من محمد * نجم يضيء كما أضاء الفرقد

كما ذكرت رواية أخرى أن خويلداً كان إذ ذاك قد هلك ، وأن الذى أنكح خديجة رضى الله عنها هو عمها : عمرو بن أسد . كما يقال أيضاً : إن الذى أنكحها هو أخوها : عمرو بن خويلد .[4]

وليس فى الرواية الأولى ما يفيد أن السيدة خديجة رضى الله عنها سقت والدها خمراً لتنتزع منه الموافقة ، كما ذهب المستشرقون إلى ذلك ، إذ من المحتمل أنه شرب كعادة العرب آنذاك عندما يقام احتفال . ولاشك أن خطبتها مناسبة تدعو إلى الشرب ، فأكثر والدها منه ، فلما جاءت لحظة الموافقة الروتينية ، بعد إلقاء كلمات الخطبة ، كانت الخمر قد أسكرته . فالموافقة الضمنية سبقت سكره ، وعليه فلا مجال هنا للطعن .

هذا إذا سلمنا بصحة هذه الرواية ، ولكننا إذا التزمنا بمبادئ البحث العلمى ، لا نستطيع ذلك ، لأن هناك روايتين أخريين ، تدلان على أن خويلدا لم يكن على قيد الحياة ، عندما تزوجت السيدة خديجة محمدَ بنَ عبد الله ، مما يجعلنا نشك فى الرواية الأولى برمتها . وهذا يسد المنافذ التى يريد أعداء الإسلام المروق منها للطعن عليه بأى كيفية ، فإن وجدت عندهم الرغبة الصادقة فى التزام قواعد البحث العلمى ، مهما كانت النتيجة التى يوصل إليها ، فيجب أن يلزموا الصمت إزاء هذه الحادثة ، فلا يتخذونها مادة للتشهير .

3 . من المسلم به أن محمدا ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وظل كذلك حتى انتقل إلى ربه ، غير أن بعض المستشرقين المحدثين يدعون أنه تعلم القراءة والكتابة وهو كبير ، وذلك عندما اشتغل بالتجارة ، إلا أنه لم يعرف لغة أجنبية ، مما جعله يخطئ فى النقل من الأديان الأخرى .

وهذا ادعاء لا وزن له ، ولولا الخشية من تأثيره على بعض المسلمين الذين لا صلة لهم بالدراسات الإسلامية المتخصصة لأهملناه ، إذ من القواعد الأولية فى البحث العلمى أن يستند الرأى إلى دليل .

فمن أين أتى هؤلاء المستشرقون بالدليل على هذه الدعوى ؟

---

[4] راجع السيرة النبوية لابن هشام : تحقيق مصطفى السقا وآخرين صـ 21 ، صـ 190

إن قالوا : مصادر إسلامية ، فقد افتروا افتراءً بيِّناً ؛ إذ لا يوجد البتة مصدر واحد – مهما كانت قيمته ومركزه العلمى فى مجال البحث العلمى – يمكن أن نجد فيه أدنى إشارة إلى أن محمداً ﷺ تعلم القراءة والكتابة وهو كبير ، بل العكس هو الثابت ، فقد أجمعت المصادر كلها على أن ظل أمياً طوال حياته وأكدت ذلك .

وإن قالوا : مصادر غير إسلامية ، فالرد على ذلك من وجهتين :

الأولى : كيف يتيح عالم لنفسه أن يعتمد على مصادر الخصم للوصول إلى نتيجة سلبية ، خاصة وأن الخصم غير حيادى ؟

الثانية : لم يذكر المستشرقون تلك المصادر التى اعتمدوا عليه حتى نُقَيِّمَها . ومن المؤكد أنه لا يوجد مصدر واحد أيد هذا الادعاء ، باستثناء بعض النتائج التى ذكرها أمثال هؤلاء المستشرقون اعتماداً على افتراضات ، وهى لا تؤدى إلى حقيقة علمية ، بل إلى تخيلات يظنها الباحث المغرض حقيقة ، بينما هى لا تخرج عن دائرة الأساطير التى سيطرت على مجال البحوث الدينية فى العصور الوسطى .

أما ادعاؤهم بأنه أخطأ فى النقل عن المسيحية واليهودية ، فيكفى للرد عليه أن الإنسان الذى لم ينل حظاً وافراً من الثقافة يستطيع أن يتبين خطأ هذا الادعاء ، ذلك أن النظام المنقول فى جميع فروع النشاط الإنسانى ، لابد أن يحتفظ ببعض صفات المنقول منه ، مهما عُدِّل فيه وغُيِّر ، فأين هى سمات المسيحية واليهودية فى الإسلام ؟

لقد انفرد الإسلام فى العقائد والشرائع بالأصالة ، وخالف ماورد فى الكتب الموجودة عند اليهود والنصارى .

أمَّا فيما يتعلق بالإله فيقول أحد العلماء الأوربيين :

" الدين الإسلامى هو الدين الوحيد الذى لم يتخذ فيه الإله شكلاً بشرياً . أما المسيحية فإن لفظة " الله " تحيطها تلك الصور الآدمية لرجل شيخ طاعن فى السن ، قد بانت عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخة والانحلال ، فمن تجاعيد بالوجه غائرة ، إلى لحية بيضاء مرسلة

مهملة ، تثير فى النفس ذكرى الموت والفناء . ونسمع القوم يصيحون : " ليحيا الله " فلا نرى للغرابة محلاً ، ولا نتعجب لصيحتهم ، وهم ينظرون إلى رمز الأبدية الدائمة ، وقد تمثل أمامها شيخاً هرماً قد بلغ أرذل العمر ، فكيف لا يخشون عليه من الهلاك والفناء ؟ وكيف لا يطلبون له الحياة ؟

كذلك " ياهو " الذى يمثلون به طهارة التوحيد اليهودى ، فهم يجعلونه فى مثل تلك المظاهر المتهالكة ، وكذلك تراه فى متحف " الفاتيكان " ، وفى نسخ الإنجيل المصورة القديمة .

أما " الله " فى دين الإسلام الذى حدث عنه القرآن ، فلم يجرؤ مصور أو نحات أن تجرى به ريشته ، أو ينحته أزميله ، ذلك لأن الله لم يخلق أحداً على صورته ، وتعالى سبحانه ، فلم تكن له صورة ولا حدود محصورة ، وهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، لم يكن له كفواً أحد " [5] ، وفيما يتعلق بالعبادة : فمختلفة كل الاختلاف ، فصلاتنا ليست كصلاتهم ، ومناسك حجنا تختلف عن مناسكهم ، وقواعد زكاتنا لا تتفق مع ما يلتزمون به فى هذا المجال ، وصيامنا على النقيض من صيامهم ، فكيف يعقل أن يكون محمد قد نقل عن اليهودية والنصرانية ؟

والصحيح أن يقال : إنه صَحَّحَ دين الله الذى حرفوه ، وبيَّن شريعته التى بدلوها وغيروها . [6]

4 . يدعى المستشرقون أن قيام السيدة خديجة بأعمال التجارة ، هيأ لمحمد الوقت للتفكير فى النواحى الدينية ، فهاله ما عليه القوم من عبادة الأوثان ، فاتجه إلى عبادة الله وحده ، وساعده على ذلك بعض العوامل التى وجدت آنذاك ، منها ماكان عليه الحنفاء من انصراف عن الأوثان ، ومحاولة البحث

---

[5] عبد الحليم محمود : أوربا والإسلام صـ 87

[6] للمزيد من معرفة الأحكام التى خالف فيها الإسلام ما جاء فى كتب اليهود والنصارى الموجودة بين أيديهم ، إقرأ كتاب : " بين الإسلام والمسيحية " تحقيق وتعليق : محمد شامة .

عن الحق ، ومنها ما سمعه من اليهود عن التوحيد عندما كان يزور أقاربه فى يثرب (المدينة المنورة)

لم يثبت تاريخياً أن محمداً تردد على المدينة ، بل زارها مرة واحدة وهو ابن ست سنوات – فى الرحلة التى ماتت فيها أمه وهى فى طريق العودة – ، ولا يعقل أبداً أن يعى طفل فى السادسة أمور الدين ، فضلاً عن أعقد شيء فيه ، وهو التوحيد . كذلك لم يثبت أن محمداً ﷺ كانت له صلة بالحنفاء ، أو كان يجلس إليهم ، إنما الحادثة الوحيدة التى التقى فيها بأحدهم هى : عندما ذهبت به السيدة خديجة إلى ورقة بن نوفل لتسأله عن ماهية ما حدث له فى غار حراء ، ويبدو من سؤال النبى ﷺ ورقة – عندما قال له : ليتنى حياً إذ يخرجك قومك ! – " أو مخرجى هم ؟ " أنه لم يكن يعرف شيئاً من سيرة الأنبياء السابقين ، ولم يكن له علم بما حدث لهم من قومهم ، حين دعوهم إلى عبادة الله . وهذا دليل واضح على أنه لم يسمع شيئاً عن هذا إطلاقاً ، لا من اليهود ، ولا من الحنفاء .

5 . يدعى المستشرقون أن ما كان يصيب محمداً أثناء تلقيه الوحى ، ما هو إلا نوبات صرع !!!

وقد رد عليهم " جوتشالك " الألمانى ، فقال :

هذا خطأ من الوجهة العلمية ، وذلك :

– أن المصروع لا يتذكر شيئاً مما حل به أثناء نوبة الصرع ، لأن حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام التعطل ، وقد أثبت ذلك البحث العلمى وأكده ، ولم يكن ذلك يصيب محمداً أثناء الوحى ، بل كانت تتنبه حواسه المدركة فى تلك الأثناء تنبهاً لا عهد للناس به ، وكان يتذكر بدقة بالغة ما يتلقاه ، ثم يتلوه بعد ذلك لأصحابه

- وأن الذى ينتابه الصرع بهذه الكثرة تضعف قواه بمرور الأيام ، ولكن محمداً ظل محتفظاً بها حتى آخر حياته ، مما يدل على أنها لم تكن نوبات صرع .[7]

6 . يدعى المستشرقون أنه حين اشتدت الوطأة بمحمد وصحبه نزل الوحى بأن الله اعترف بنبوة ثلاثة من الأصنام كبنات له ، فأدخل ذلك السرور على المسلمين ، وهدأت ثورة المشركين ضد الدعوة ، ورجع المهاجرون من الحبشة عندما وصلهم النبأ ، ولكن الوحى عاد فصحح ذلك اللبس الذى حدث ، ويستدلون على ذلك بنصوص من الكتب الإسلامية .

قد يقال : إنهم لم يأتوا بدعاً من القول ، فالقصة رويت فى كتب إسلامية ، والمستشرقون يولونها اهتماماً بالغاً ، وعليه فمن الطبيعى أن يرددها أوربيون ، لم يدرسوا مثل هذه القصة فى معاهد إسلامية ، وليست لديهم الروح الإسلامية التى تدفعهم إلى محاولة تنقية التاريخ الإسلامى مما علق به ، لأن تلك الروح مصدرها المجتمع الإسلامى أو العقيدة ، وكلاهما غير موجود فى عالم هؤلاء ، فهم ليسوا مسلمين ، ولا يعيشون فى مجتمع إسلامى .

والموقف يقتضينا أن نذكر رداً بسيطاً يقتنع به كل قارئ ، مهما كانت درجة ثقافته ، ألا وهو :

- أن هذه الرواية التى ذكرت تلك القصة مشكوك فى صحتها ، وإذا تطرق الشك إلى دليل فقد حُجِّيته .

زد على ذلك أن المرء إذا قرأ الآيات التى أوحت بهذه القصة وهى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم: ١٩ - ٢٠]

---

[7] " جونشالك " : الإسلام فى الفكر الأوربى ، عرض ونقد : محمد شامة

ثم أضاف إليها النص المزعوم الذى أحدث البلبة ، وهو : " تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى " ما استقام المعنى ؛ إذ عقب هذا مباشرة – على فرض صحة النص المزعوم – جاء قوله تعالى :

﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النجم: ٢١ - ٢٢]

فكيف يستقيم المعنى ، لو أُقْحِم النص المفترى بين تلك الآيات ؟

لا يستقيم إلا فى عقل سقيم !!!

7. يعلل المستشرقون رفض أهل الطائف دعوة محمد ﷺ بخوفهم على مصالحهم التجارية ، فقد كانت تربطهم بأهل مكة معاملات تجارية ، كانت ستتأثر ، لو اتخذت قريش منهم موقفاً عدائياً إن هم أسلموا .

هذه قضية صحيحة إلى حدما ، وتحدث فى جميع المجتمعات البشرية فى كل العصور والأزمان ، ولكن ليس هذا هو السبب الوحيد لرفضهم الإسلام ،بدليل أنهم رفضوه بعد أن أسلمت قريش ، وسلمت للنبى ﷺ ، بل هناك أسباب أخرى ، منها : أن الإنسان مثل النبات ، مربوط فى مجتمعه بعدة جذور ثقافية واجتماعية وعقدية – وهى المصطلح على تسميتها بالعادات والتقاليد – ، وعند التحول فى أى ميدان من ميادين الحياة – الاجتماعية، أو الثقافية ، أو الدينية – لا يكون الأفراد متساوين فى القدرة على تقطيع هذه الجذور ليتحولوا إلى الاتجاه الجديد ، فبعضهم يستطيع التخلص منها بسرعة ، والبعض الآخر يبطئ .... إلى أن يصل الأمر إلى إكراه بعض الأفراد على التحول (قد تكون وسيلة الإكراه معنوية : وذلك عندما يجد المرء نفسه هو الوحيد – أو مع قلة قليلة – المتمسك بالقديم) . وموقف العرب من الإسلام لم يخرج عن هذه القاعدة : تباطأ أهل مكة والطائف فى التخلص من العقائد البالية ، بينما أسرع أهل يثرب (المدينة المنورة فيما بعد) بالتحول إلى الدين الجديد ، وهذا هو ما يعبر عنه قوله تعالى :

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]

8. يدعون أن المدينة أصيبت بمجاعة نتيجة لهجرة 200 أسرة إليها ، فاضطر ذلك محمداً إلى اتخاذ إجراء للخروج من هذا المأزق ، فوجه المسلمين إلى التعرض لقافلة قريش التى كان يقودها أبو سفيان .

هذا الادعاء باطل من أساسه ، لأن المدينة كانت غنية بخيراتها ، فلم تحدثنا كتب السيرة بحدوث مثل هذه المجاعة .

فمن أين استقوا هذه المعلومة ؟

لاشك أنها استنتاج من تصورات خيالية فى ذهنهم ، فقد خيل لهم أن التعرض للقافلة كان الدافع إليه ، هو احتياج المدينة لما تحمله . وليس هذا هو أسلوب البحث العلمى الذى يجب أن يقوم على حقائق ، وليس على افتراضات متخيلة . زد على ذلك أن القرآن الكريم قد بيَّن أن الغرض من التعرض للعير ليس للاستيلاء عليها ، بل الهدف منه هو إحقاق الحق ، أى كسب اعتراف " دولى " بشرعية الدعوة ، كى لا يتعرض لها أهل مكة ، لأن إدراكهم للخطر الذى تتعرض له قوافلهم سوف يدفعهم إلى المصالحة ، والتخلي عن الوقوف فى طريق الدعاة .

ومن يقرأ قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الأنفال: ٧]

يدرك هذا المعنى ..... اللهم إلا أولئك الذين تشدهم عاداتهم وتقاليدهم إلى طريق العداوة للإسلام ، حيث يكون الهجوم عليه والكيد له .

هذا بعض ما ظهر في أبحاث المستشرقين في أروقة البحث في الجامعات الألمانية ، وما يردده أعداء الإسلام ، وينشرونه في أبحاثهم ودورياتهم ، وهو وإن كان بعيداً عن البحث العلمي النزيه ، إلا أنه أخف بكثير مما كان يردد آباء الكنيسة عن محمد ﷺ في القرون الوسطى .

* * *

ويلي المستشرقين كتابُ القصص والروايات ، وهؤلاء يعتمدون في تصوير أبطالهم وشخصياتهم على ما كتبه الرحالة وآباء الكنيسة والمستشرقون ، أما المصدر الأول — وهم الرحالة — فقد غلب عليهم خيال جامح ، وخاصة في القرون الوسطى ، ولا ننسى رائدهم "ماركوبولو" (1254 -1323م) الذي دوَّن رحلته إلى الشرق في جزأين ، حشاهما بغرائب التراث ، والأخلاق ، والأديان . ولا يقلُّ عنهما ما جاء في رحلة "شاباي" من ضلالات لا يصدقها عقل ، مثل قوله : (إن للشرقيين ثمانية أنامل ورأسين) .

والمصدران الأخيران لم يقدما لكتاب القصص سوى صورة مهلهلة ، ممزقة عن الإسلام ، فخرجت القصص والروايات بلوحة عن الإسلام والمسلمين ، طُمِسَت معالمها ، وشُوِّهَت جوانب الجمال فيها ، ومُحِيَت معالم الإنسانية من خطوطها وألوانها .

فإذا هيأت الظروف لواحد منهم الاطلاع على مصادر إسلامية ، موثوق بها ، ظهر انعكاسها باهتاً فى رواياته وقصصه ، لأن هذا التأثير العابر ، لا يمكن أن يمحو أثراً رسخ فى ذهنه منذ طفولته ، وواكبه فى مراحل عمره ، ولازمه فى حله وترحاله ؛ إذ معرفته عن الإسلام فى طفولته من أبويه — ومصدر ثقافتهما عنه فى الغالب الأعم من كتابات آباء الكنيسة والمستشرقين — ، وفى المدرسة من مدرس لم يكن أوفر حظاً فى استقاء معلوماته عن الإسلام ، وفى المجتمع من الصورة المشوهة التى رسمتها عدة مصادر ، تساندت كلها فى تشويه صورة الإسلام للمجتمع الأوربى ، كى تحول بينه وبين التحول إلى الإسلام .

وهناك فريق آخر ، كتب عن الإسلام ، ولم يكن الدافع له موقعه فى الكنيسة ، أو عمله كمستشرق ، كما أنه ليس من هواة كتابة القصص عن الشرق المليء بالأحداث التى تستهوى قطاعاً كبيراً من القراء — كقصص "كارل ماى" — ، ولكنه كتب عن الإسلام إشباعاً لرغبة البحث عنه ، وتعبيراً عن غريزة الكتابة لديه ، ليسهم فى بناء حضارة أمته ، وليصحح بعض المفاهيم الشائعة بين بنى قومه — من وجهة نظره — حتى يستقيم بناء المجتمع ، ويشتد أزر الأمة ، وتتجنب الزلل فى تقدمها على طريق الزمن .

ويضم هذا الفريق فلاسفة ، واجتماعيين ، وسياسيين ، واقتصاديين ، ورجال أعمال . وقد تناول كثير منهم الإسلام فى بحوثه ، بعضهم عالجه كجزئية ضمن عديد من قضايا بحثه ، بينما احتل صفحات كثيرة عند الآخرين ، غير أن عدداً من الباحثين المعاصرين كتب مؤلفات ضخمة — وصل بعضها إلى عدة مجلدات — عن الإسلام ، تختلف فى طابعها ومنهجها عما كتبه المستشرقون وآباء الكنيسة فى العصر الوسيط ؛ إذ يغلب عليها رغبة المؤلف فى التزام الموضوعية ، والبعد عن المهاترات لآباء الكنيسة ، وترهات المستشرقين ، لكن ظروفه الاجتماعية والثقافية منعته من تحقيق هذا الهدف على الوجه الأكمل ، فهو — وإن تشرب بروح النهضة الحديثة ذات الطابع العلمانى ، إن لم تكن أقدم من ذلك — مكبل بسلاسل إعلامية — سواء كانت إذاعية ، أو صحفية ، أو نشرات دورية ، أو كتب ثقافية وتخصصية — تحجب الجانب الإيجابى فى الإسلام ، وتصوره بصورة تنفره منه ، وتبعده

عنه ، إذا ما اقترب يوماً من الإسلام بفعل الموجات الليبرالية التي اجتاحت أوربا في العصر الحديث .

لم يزل اتجاه بعض الأوربيين في محاولة وقف المد الإسلامي قائماً حتى العصر الحديث ، غير أنه اتخذ أسلوباً أقل عنفاً ، وأكثر هدوءاً ، لأن طبيعة العصر حتمت على البعض منهم أن يلتزم جانب الحياد العلمي إلى حدما ، فظهر من ينصف الإسلام و يعترف بأهميته للمجتمع الإنساني . و لم تبدأ معالم هذا الاتجاه في الظهور إلا منذ القرن التاسع عشر ، حين انتشرت الثقافة الشرقية في أوربا ، وأخذ المستشرقون يجدون في فتح مغاليق الشرق ، وكشف ما فيه من كنوز بعد حملة نابليون التي فاقت أهميتها العلمية أهميتها السياسية .

وهكذا سنحت الفرصة أمام بعض العقلاء من الأوربيين للوقوف في وجه الظلم والإجحاف الذي لقيه الإسلام في الغرب في القرون الوسطى ، فظهرت بعض المؤلفات العامة المعتدلة عن الإسلام والحضارة الإسلامية ، وحل محل الآراء التي تبناها اللاهوتيون (والمستشرقون المتعصبون) آراء أخرى أقل عنفاً ، وأقرب إلى الاعتدال والإنصاف للإسلام والمسلمين [8] ، يقول " كارل لايل " :

" من العار أن يصغي أي إنسان متمدين من أبناء هذا الجيل إلى وهم القائلين أن دين الإسلام كذب ، وأن محمداً لم يكن على حق...

" لقد آن لنا أن نحارب هذه الادعاءات السخيفة المخجلة ، فالرسالة التي دعا إليها هذا النبي ، ظلت سراجاً منيراً أربعة عشر قرناً من الزمان لملايين كثيرة من الناس ، فهل من المعقول أن تكون هذه الرسالة التي عاشت عليها هذه الملايين وماتت أكذوبة كاذب ، أو خديعة مخادع ؟ ولو أن الكذب والتضليل يروجان عند الخلف هذا الرواج الكبير لأصبحت الحياة سخفاً ، وكان الأجدر بها ألا توجد ، هل رأيتم رجلاً كاذباً يستطيع أن يخلق ديناً ، ويتعهد بالنشر بهذه الصورة ؟

---

[8]) محمود زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري صـ 32

" إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبنى بيتاً من الطوب ، لجهله بخصائص مواد البناء ، وإذا بناه ، فما ذاك الذى يبنيه إلا كومة من أخلاط هذه المواد . فما بالك بالذى يبنى بيتاً دعائمه هذه القرون العديدة ، وتسكنه هذه الملايين الكثيرة من الناس ؟

" وعلى ذلك فمن الخطأ أن نعد محمداً رجلاً كاذباً متصنعاً متذرعاً بالحيل والوسائل لغاية أو مطمع ... وما الرسالة التى أداها إلا الصدق والحق ، وما كلمته إلا صوت حق صادق صادر من العالم المجهول ، وما هو إلا شهاب أضاء العالم أجمع ، ذلك أمر الله ... وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ." [9]

لكن كلمة الحق اختفت فى القرن العشرين وراء بعض الممارسات التى تقع من الجماعات المتشددة ، الرافضة لمعطيات العصر مما جعل الأوربيين ينظرون إلى الإسلام على أنه دين مضى زمنه ، فأصبح لا يصلح للعصر الحديث .

ظل الأوربيون يحاولون تثبيت هذه المقولة ، عن طريق وسائل الإعلام الحديثة فى وعى الشعوب ، حتى لا تقترب من الإسلام أو تفكر فى وضعه على قائمة الأيديولوجيات المعاصرة ، المتنافسة فى ساحة اختيارات الفكر البشرى ، المنظم لحياة المجتمعات ، ولكن لم تنفع هذه المحاولات فى إبعاد الإسلام عن مركز اهتمام المفكرين ، وتطلعات الأفراد والشعوب إلى فكر ينقذها من أزماتها المتلاحقة ... حتى انفجرت موجة العنف على الساحة الدولية قاطبة ، واشترك فيها بعض المسلمين ، فتلقفها بعض المفكرين ، واستخدموها فى محاربة المد الإسلامى، مدعين أن الإرهاب خرج من رحم الإسلام ، ونشره المسلمون فى كل أرجاء المعمورة ، ولذا أصبح الإسلام هو العدو الأول للحضارة الحديثة بعد انهيار الشيوعية، ناسين – أو متناسين – أن الإرهاب ليس له هوية معينة ، بل هو عالمى يحمل جنسية التطرف فى كل دين ، ويساعد على ظهوره الجهل ، وفى بعض الأحيان الكبت الناتج عن الظلم والقهر والممارسات اللاإنسانية التى تدفع إلى الانفجار .

---

[9] عبد الحليم محمود : أوربا والإسلام صـ 49-50

ولكى تُصَحَّح هذه المفاهيم ينبغى على المفكرين – مهما اختلفت عقائدهم وتباينت اتجاهاتهم الفكرية – أن يعقدوا لقاءات فكرية للتحاور ، والمناقشة حول هذه الظواهر ، ليصلوا إلى أسلوب يضمن التعايش السلمى بينهم ، و لاشك أنهم سيصلون إلى هذا الهدف لو حرص كل واحد على الوصول إلى الحقيقة من مرجعها الأصلى ، بدل أن يأخذ معلوماته – عن العقيدة ودوافع الممارسات السلبية – من المدعين والجهلة ، وأنصاف العلماء .

وأمل المسلمين كبير فى أن يأتى اليوم الذى تزول فيه هذه الغشاوة ، فيفهم الباحثون الإسلام ، كما أراده الله ، ولن يأتى هذا اليوم دون جهود علماء المسلمين فى تفنيد مزاعم المستشرقين ، وبيان وجه الحق فيما يدعون ، وذلك أمر لا يقدر عليه الأفراد ، بل لابد من تكاتف الهيئات والمؤسسات العلمية فى العالم الإسلامى .

كما لا يخفى أن صوت الإسلام الحق لن يصل إلى آذان الشعوب إلا عبر وسائل الاتصال الحديثة .

obeikandl.com

obeikandl.com